

الإمام محمد بن علي الشوكاني وموقفه من الدعوة السلفية الإصلاحية

[١]

الشيخ حمد الجاسر *

الإمام محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ / ١٢٥٠هـ) من أئمة العلماء المجتهدين الداعين إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قولاً وعملاً ، المحاربين للتقليد الأعمى ، ولما شاع بين المسلمين مما أبدع في الدين ومؤلفاته المشهورة الكثيرة كلها تعبر عن هذا ، وتدلل عليه ، ولا أحد يشك في سلامة معتقده ، وفي صحة مناصرته للدعوة الإصلاحية التي قام بها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وآزره على نشرها الأئمة من آل سعود ، وكثير من علماء اليمن المجتهدين كانوا ممن اتجه هذا الاتجاه الحميد للدعوة الإصلاحية ، ومن أشهرهم محمد بن إسماعيل بن الأمير الصنعاني ، وقبله ابن الوزير صاحب كتاب "العواصم من القواصم" ، ولبعض أئمة اليمن من الزيديين جهود مشكورة في ترسيخ هذه العقيدة بهدم القباب، والنهي عن البدع والخرافات، كل هذا من الأمور البديهية التي لا يماري فيها إلا من أعمى الله بصيرته .

* علامة الجزيرة العربية المحقق المدقق ، درس في بلدته البرود ثم في الرياض ومكة المكرمة والقاهرة ، وعمل في مجال التعليم والصحافة والتأليف والنشر وعضوية المجامع اللغوية، وأصدر صحيفة اليمامة ثم مجلة العرب ، وله مئات الآثار في التأليف والتحقيق والمقالة ، وحصل على العديد من الجوائز .

وقد وقع في يدي منذ فترة كتاب نشرته (وزارة الثقافة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في عدن) بعنوان "ذكريات الشوكاني" تحقيق الدكتور صالح رمضان محمود ، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ، ورئيس قسم التاريخ في كلية التربية في (جامعة عدن) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٨٣م (١٤٠٣هـ) وهو مُصَدَّرٌ بمقدمة في الحديث عن مذكرات الشوكاني قال : إن مخطوطتها المصورة في خزانة الأمبروزيانا في إيطاليا برقم ٧٦ E وفي مكتبة الفقييد عبدالله باديب (بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) صورة منها ، ولهذه المذكرات مخطوطة أخرى موجودة في (دار الكتب المصرية في القاهرة) ضمن المخطوطات اليمنية التي تقدر بـ (٤٦٦) قام بتصويرها أعضاء البعثة المصرية التي ذهبت إلى الجمهورية اليمنية عام ١٩٦٥م (١٣٨٥هـ) ثم وصف المخطوطة ، وقال : إن الجزء الأول يشتمل على المراسلات النثرية حول الحملة الفرنسية على مصر وعددها ٢٧ نصّاً ، هي الفصل الأول ، أما الفصل الثاني فيشتمل على النصوص المتعلقة بالحروب الوهابية وعددها (٣٨) نصّاً ، وموقف إمام اليمن منها ، وكذلك مراسلات محمد علي في مصر مع أئمة اليمن الثلاثة المنصور : علي بن المهدي (١١٧٩ / ١٢٢٤) والمتوكل : أحمد بن المنصور (١٢٣١/١٢٢٤) والمهدي : عبدالله بن المتوكل (١٢٣١/١٢٥١) والشوكاني عاش في الفترة من (١١٧٣ / ١٢٥٠) .

وأما الجزء الثاني من هذه المذكرات فيشتمل على المراسلات التي دارت بين الشوكاني وبين أصدقائه بالنظم .

وجاء في المقدمة أن الشوكاني أشار إلى هذه المخطوطة في ترجمة

الشريف غالب بن مساعد عن المراسلات التي تمت بين الإمام المنصور وبين الوهابيين .

لم أعن بما ورد في هذا الكتاب إلا بما يتعلق بالدعوة الإصلاحية السلفية وموقف الإمام الشوكاني منها ، حيث ورد فيه من التحامل على الدعوة السلفية ما يرتفع قدر الإمام الشوكاني عنه ، فقد ورد في هذا الكتاب ^(١) : (أما الفصل الثاني فقد أوردت فيه جميع النصوص التي وردت بالمخطوطة وعددها (٣٨) نصاً ، والمتعلقة بالوهابيين وموقف أئمة اليمن الثلاثة منهم ، وهذه النصوص تنشر لأول مرة ، ولم ترد حتى في كتاب "البدر الطالع" لمؤرخنا الشوكاني والذي أورد فيه مؤرخنا ترجمة لمحمد بن عبدالوهاب ، وقادة الدعوة الوهابية ، وهذه النصوص توضح امتداد نفوذ الوهابيين إلى اليمن وسيطرتهم على الشريف حمود الذي انضم إليهم ، وقام بالاستيلاء على تهامة وبعض المدن اليمنية بعد أن كان تابعاً لإمام اليمن من قبل ، وقد عالج مؤرخنا الشوكاني هذه الأمور منفصلة وعالجها في مكاتباته جملة ، منها التي جرت بين زعماء نجد وبين الأئمة من المكاتبات التي حررها مؤرخنا الشوكاني على ألسنتهم) انتهى .

وعقب المحقق على ذلك بقوله ^(٢) : (وبالرغم من أن مؤرخنا الشوكاني كان معجباً ببعض آراء الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، إلا أنه كان يعارض بشدة شيئين المذهب الوهابي ، كحاكم لأنه لا يؤمن بمذهب يُفرض بحد السيف ، وأي مذهب لا تدافع الأدلة والحجة عنه يجب أن يموت كما مات غيره) .

(١) "ذكريات الشوكاني" - ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١١/١٠ .

ويبدو أن الدكتور الذي تولى نشر هذا الكتاب ليس كما وصف نفسه ، بأنه أستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر ، بل هو يجهل جهلاً تاماً حقيقة الدعوة الإصلاحية وتاريخها بل يحمل حقداً للقائمين بنشر تلك الدعوة .

لقد توسع في أول الكتاب عن الحملة الفرنسية على مصر ، وساق ما تحت يده من رسائل الشوكاني وغيرها حولها ، وحول ما يتصل بها من حوادث عامة ، استغرقت من الكتاب أكثر من مئة صفحة ، وأتبعها بالكلام على الحروب الوهابية أورد في أولها : ترجمة للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب تدل على جهله ، فقد وصفه بأنه درس في دمشق وبغداد ورحل إلى معظم العواصم الإسلامية مثل مكة والمدينة والأحساء وأصفهان وقُم ، وقال : وبهذه الرحلة الطويلة ضم معرفة تجريبية واقعية عن الإسلام والمذاهب الإسلامية ، وشأنه في "ذاك" شأن أستاذه ابن تيمية من قبل ، وشأن أصحاب الحركات الإسلامية التي جاءت بعده ، وذكر أنه ولد في (العينية) لا (العينية) واسترسل في وصف تعاليم الدعوة ، وذكر انتقاله إلى (الدرعية) وقيام الإمام محمد بن سعود بمناصرته ، بعد أن تزوج ابنته ، والزواج هذا غير صحيح ، ثم استعرض بإيجاز تاريخ الدولة السعودية الأولى حتى وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما جرى من الشريف غالب بن مساعد من معارضته ، ثم إلى الانقياد والدخول في الطاعة ، واسترسل في ذلك حتى ذكر قيام محمد علي والي مصر لغزو البلاد حتى استولى ابنه إبراهيم باشا على الدرعية ، ووصف هذا الطاغية بأنه كان يعامل القبائل باللين والحسنى ، وأنه اهتم بحفر الآبار لتحسين الزراعة وتنميتها ، وكل هذا خطأ لا يقره التاريخ ، بل كان يخرب القرى وما فيها من زراعة .

ثم خُص من هذا إلى ذكر موقف اليمن من الوهابيين كما جاء في المخطوطة قائلاً^(١) : (كانت آراء مؤرخنا الشوكاني ضد الغزو الوهابي ، وبالرغم أنه كان معجباً ببعض آراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، إلا أنه كان يعارض بشدة شيئين المذهب الوهابي كحاكم لأنه لا يؤمن بمذهب يفرض بالسيف ، وأي مذهب لا تدافع الأدلة والحجة عنه يجب أن يموت كما مات غيره ، كذلك كان رأيه سيئاً ومعارضاً بشدة للغزو التركي ، وعالج مؤرخنا الشوكاني هذه الأمور منفصلة كما عالج في مكاتباته جملة منها التي جرت بين زعماء نجد وبين الأئمة الذين عاصروهم من المكاتبات التي حرر بعضها على ألسنتهم والتي ستعرض لها عند عرض النصوص الخاصة بالحروب الوهابية) انتهى .

وقال فيما نقل عن المؤرخ اليمني الواسعي^(٢) : (ومن نجد قامت الفتنة وعظمت المحنة بقيام عبدالعزيز وولده سعود واستولى على الحرمين والعراق فخرجوا على تهامة وغلبوا الأشراف ، وخروج القبائل على الطاعة للإمام المنصور وكثر منهم النهب والقتل وقطع الطرق ، وحوصرت صنعاء سنة ١٢٢٣هـ محاصرة شديدة) .

وعبدالواسع الواسعي - رحمه الله - ليس من العلماء البارزين ، بل ممن تصدى لكتابة التاريخ عن جهل وعن غير علم ، فقد اجتمعت به في (دار الكتب المصرية) سنة ١٣٥٨هـ ، وكنت قد اقتنيت كتابه ، فذاكرته فيما وقع فيه من أخطاء شنيعة ، فاتضح لي أن الرجل طيب القلب ، وأنه لا يحمل في قلبه ضغينة ولا حقداً ، ووعد بأن يصلح ما وقع في كتابه من أخطاء في الطبعة الثانية .

(١) نفس المصدر ص ١١١ / ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١١٢ .

وقد قيل لي بأنه حذف كثيراً مما ورد في هذا الكتاب مما نبهته إليه ، ومن ذلك نيله من العقيدة السلفية ، وعده المعادن التي ذكرها الهمداني في "صفة الجزيرة" في بلاد بني عَقِيل ، وهي في نجد ، عدها في اليمن ، ولكنه في الطبعة الأخيرة لم يذكرها ، ويحسن أن نرجع إلى مؤلف الشوكاني "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" وقد أكرماني بنسخة من طبعته الأخيرة التي حققها الدكتور حسين بن عبدالله العمري الابن الكريم الأستاذ عبدالله الهدلق ، وهذه الطبعة الأخيرة عن مسودة المؤلف الوحيدة بقلمه .

والواقع أنني كنت في شك مما طالعت في الطبعة الأولى من خلوه من ترجمة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وهو من محاسن الزمن ، واستغربت عدم وجودها في تلك الطبعة ، وداخلني الشك من صحة ما فيها ، وكنت قد قرأت قصيدة منسوبة للإمام الشوكاني نشرها الشيخ محمد حامد الفقي في مجلة الإصلاح ^(١) التي كانت تصدر في مكة المكرمة ومطلعها :

مصائبُ دَهَى قلبي فأذكي غلاتي

وآخرها :

ألا أنعم (برغد) في رفيع المنازل

وكلمة (برغد) يوافق في حساب الجُمَّل (١٢٠٦) وهو تاريخ وفاة الشيخ محمد - رحمه الله - وعلمت أن ديوان الشوكاني قد حققه الدكتور حسين بن عبدالله العمري ، فطلبت من الأستاذ عبدالله الهدلق أن يبحث لي عن هذه

(١) السنة الثانية في محرم سنة ١٣٤٩ هـ .

القصيدة في الديوان ، فصور لي جميع ما فيه من حرف اللام ، كما صور لي ما ورد فيه في الكلام على الإمام سعود بن عبدالعزيز في الديوان ونصه : (كان يرسل الإمام الشوكاني حين راسل الإمام المتوكل أحمد وأباه المنصور من قبله وذلك حول دعوة المرحوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى التوحيد وهدم القبور المشيدة والقباب المرتفعة ، وكان الشوكاني كسلفه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير وغيره من متحرري علماء اليمن قد رحبوا بالأراء الإصلاحية التي نادى بها الشيخ ابن عبد الوهاب ولم تكن في الواقع جديدة أو غريبة عليهم وعندما توفي الشيخ عام ١٢٠٦هـ (١٧٩١) رثاه الإمام الشوكاني بقصيدة ليست في الديوان ولا في "البدر الطالع" لهذا ثبت ما وجدناه منها إكمالا للفائدة :

مُصَابٌ وَهَى قَلْبِي وَأَذَكَّى غَلَاتِلِي

وَأَصْمَى بِسَهْمِ الْاِفْتِجَاعِ مَقَاتِلِي ^(١)

وبعده تسعة أبيات نقلاً عن تاريخ الدولة السعودية الأولى للدكتور عبد الرحيم نقلاً عن محمد حامد الفقي من كتاب "أثر الدعوة الوهابية" ، وعلّق الدكتور حسين العمري على هذا بقوله : (وهكذا لم يكن هناك خلاف مذهبي حول آراء ابن عبد الوهاب الإصلاحية الأساسية لكن التعصب الذي صاحب الحركة في انتشارها ، جعل الشوكاني يرسل هذه القصيدة من نظمه إلى ابن سعود في الدرعية) وساق في القصيدة التي أوردها - ص ١٥٤ - كاملة جاء فيها ^(٢) :

(١) "ديوان الشوكاني" أسلاك الجوهر" ص ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٥ .

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ
عَلَى صَوْبِ الصَّوَابِ لَنَا قُعُودُ
وَنَهْجُ الْحَقِّ لَا تَبْغِي سِوَاهُ
إِلَيْهِ جُلُّ مَقْصِدِنَا يَعُودُ
وَأَنَا نَجْعَلُ الْقُرْآنَ جَسْرًا
فَمَصْدَرُنَا عَلَيْهِ وَالْوُرُودُ
نَرُدُّ إِلَى الْكِتَابِ إِذَا اخْتَلَفْنَا
مَقَالَاتِنَا وَلَيْسَ لَنَا جُحُودُ
كَذَاكَ إِلَى مَقَالِ الطُّهْرِ طَهْ
نَرُدُّ فِي الْكِتَابِ لَذَا شُهُودُ

واسترسل في هذا الموضوع، والقصيدة مثبتة في الديوان في (٥٩) بيتاً.
وقد بحثت في كتاب " البدر الطالع" في طبعتيه فلم أجد فيه ترجمة
للشيخ محمد عبدالوهاب كما توقعت ، وكما ذكر ناشر "رسائل الشوكاني" (١) ،
كما أن مرثاته لم ترد في الديوان ، وهذا غريب حقاً ، وإن كان لا يتعارض مع
موقفه من الدعوة الإصلاحية .

(للبحث صلة)

الإمام محمد بن علي الشوكاني وموقفه من الدعوة السلفية الإصلاحية

[٢]

الشيخ حمد الجاسر *

يحسن استعراض ما ورد في كتاب "البدر الطالع" للإمام الشوكاني عن الدعوة السلفية الإصلاحية التي قام بها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فقد تحدث عنها في موضعين أحدهما في ترجمة الإمام سعود بن عبد العزيز . فقد قال في ترجمته^(١) : « وكان جده محمد شيخاً [أميراً] لقريته التي هو فيها فوصل إليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعي إلى التوحيد ، المنكر على المعتقدين في الأموات ، فأجابه وقام بنصره ، ومازال يجاهد من يخالفه ، وكانت تلك البلاد قد غلبت عليها أمور الجاهلية ، وصار الإسلام فيها غريباً ، ثم مات محمد بن سعود وقد دخل في الدين بعض البلاد النجدية وقام ولده عبد العزيز مقامه ، فافتتح جميع الديار النجدية والبلاد العارضية ، والحسا والقطيف ، وجاوزها إلى فتح كثير من البلاد الحجازية ، ثم استولى على الطائف ومكة والمدينة وغالب جزيرة العرب ، وغالب هذه الفتوح على يد سعود ،

(١) ص ٢٧٣ / ٢٧٤ .

* علامة الجزيرة العربية المحقق المدقق . درس في بلدته البرود ثم في الرياض ومكة المكرمة والقاهرة ، وعمل في مجال التعليم والصحافة والتأليف والنشر وعضوية المجامع اللغوية ، وأصدر صحيفة اليمامة ثم مجلة العرب ، وله مئات الآثار في التأليف والتحقيق والمقالة ، وحصل على العديد من الجوائز ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

ثم قام بعده ولده سعود ، فتكاثر جنوده واتسعت فتوحه ، ووصلت جنوده إلى اليمن فافتتحوا بلاد (أبي عريش) وما يتصل بها ، ثم تابعهم الشريف حمود ابن محمد شريف (أبي عريش) وقد تقدمت ترجمته ، وأمدوه بالجنود ففتح البلاد التهامية كاللُحَيَّة والحُدَيْدَة ، وبيت الفقيه وزبيد وما يتصل بهذه البلاد ، وما زال الوافدون من سعود يفدون إلينا إلى صنعاء إلى حضرة الإمام المنصور ، وإلى حضرة ولده الإمام المتوكل بمكاتيب إليهما بالدعوة إلى التوحيد ، وهدم القبور المشيدة والقباب المرتفعة ، ويكتب إليّ أيضاً مع ما يصل من الكتب إلى الإمامين ، ثم وقع الهدم للقباب والقبور المشيدة في صنعاء ، وفي كثير من الأمكنة المجاورة لها ، وفي جهة ذمار وما يتصل بها .

ثم ذكر محاربة والي مصر للدولة السعودية قائلاً وهو الآن في مكة ، والحرب بينه وبين سعود مستمرة ، ثم ذكر وفاة سعود سنة ١٢٢٩ ، وقيام ولده عبدالله بالأمر بعده ، وأضاف : وقد أفردت هذه الحوادث العظيمة بمؤلف مستقل .

وقال في ترجمة الشريف غالب : بعد هزيمة الشريف سنة ١٢١٢ من قبل الإمام عبد العزيز بن سعود وأضاف في وصف قوة هذا الإمام^(١) : « فقد سمعنا أنه قد استولى على بلاد الحسا والقطيف وبلاد الدواسر ، وغالب بلاد الحجاز ، ومن دخل تحت حوزته أقام الصلاة والزكاة والصيام ، وسائر شعائر الإسلام ، ودخل في طاعته من عرب الشام الساكنين ما بين الحجاز وصعدة غالبهم ، إما رغبة وإما رهبة ، وصاروا مقيمين لفرائض الدين ، بعد أن كانوا لا يعرفون من الإسلام شيئاً ، ولا يقومون بشيء من واجباته ، إلا مجرد التكلم بلفظ الشهادتين على ما في لفظهم بها من عوج ، وبالجمله فكانوا في جاهلية جهلاء

كما تواترت بذلك الأخبار إلينا ، ثم صاروا الآن يصلون الصلوات لأوقاتها ،
ويأتون بسائر الأركان الإسلامية على أبلغ صفاتها .

واسترسل في وصف قوة الجيوش وانقياد سكان السراة ودخولها تحت
الطاعة مضيفاً ^(١) : « وتبلغنا عنه أخبار الله أعلم بصحتها ، من ذلك أنه
يستحل دم من استغاث بغير الله من نبي أو ولي أو غير ذلك ، ولا ريب أن
ذلك إذا كان من اعتقاد تأثير المستغاث به كتأثير الله كُفِّرُ يصير به صاحبه
مرتداً كما يقع في كثير من هؤلاء المعتقدين للأموات الذين يسألونهم قضاء
حوادثهم ، ويعولون عليهم زيادة على تعويلهم على الله سبحانه ، ولا ينادون
الله جل وعلا إلاً مقترباً بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب ، فهذا
من الكفر الذي لا شك فيه ولا شبهة ، وصاحبه إذا لم يتب كان حلال الدم والمال
كسائر المرتدين ، ومن جملة ما يبلغنا عن صاحب نجد أنه يستحل سفك دم من
لم يحضر الصلاة في جماعة ، وهذا إن صح غير مناسب لقانون الشرع ، نعم
من ترك صلاة فلم يفعلها منفرداً ، ولا في جماعة فقد دلت أدلة صحيحة على
كفره ، وعورضت بأخرى فلا حرج على من ذهب إلى القول بالكفر إنما الشأن في
استحلال دم من ترك مجرد الجماعة ولم يتركها منفرداً » .

وقال عن الإمام محمد بن سعود ^(٢) : « وقد رأيت كتاباً من صاحب نجد
الذي هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب به على بعض أهل العلم ، وقد كاتبه
وسأله بيان ما يعتقده فرأيت جوابه مشتملاً على اعتقاد حسن موافق للكتاب
والسنة » .

(١) ص ٥٢٥ / ٥٢٦ .

(٢) ص ٥٢٦ .

وأضاف ^(١) : «وفي سنة ١٢١٥هـ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما إلى حضرة مولانا الإمام حفظه الله ، أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها في الإرشاد إلى إخلاص التوحيد ، والتنفير من الشرك الذي يغلبه المعتقدون في القبور ، وهي رسائل جيدة ، مشحونة بأدلة الكتاب والسنة ، والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ، ذكروه في مسائل متعلقة بأصول الدين ، وبجماعة من الصحابة ، فأجاب عليهم جوابات محررة مقررة محققة ، تدل على أن المجيب من العلماء المحققين ، العارفين بالكتاب والسنة ، وقد هدم عليهم جميع ما بنوه ، وأبطل جميع مادونوه ؛ لأنهم مقصرون متعصبون ، فصار ما فعلوه خزيا عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة ، وهكذا من تصدر ولم يعرف مقدار نفسه » .

ثم ذكر دخول بلاد أبي عريش وأشرافها في طاعة صاحب نجد ، وتزلزل الديار اليمنية بذلك ، والاستيلاء على بعض ديار تهامة ، وقال : «وجرت أمور يطول شرحها وقد أفردت ما بلغني من ذلك في مصنف مستقل» إلى آخر ما ذكر .

لم أجد في كتاب "البدر الطالع" للشوكاني ترجمة للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولكنه أثناء تحدّثه عما دعا إليه من تجديد العقيدة السلفية ، وتطهيرها من البدع والخرافات ، يصرح بموافقته على ذلك ، ولعله أورد له ترجمة في الكتاب الذي أفرد فيه حين قال : «وجرت أمور يطول شرحها ، وقد أفردت ما بلغني من ذلك في مصنف مستقل» فلعله اكتفى بترجمة الشيخ التي أوردتها في هذا الكتاب . وقد يقال بأن الشوكاني - رحمه الله - وهو المقدم عند ثلاثة أئمة من الأئمة الزيديين في عهده ، في جميع الشؤون الدينية ، وقد

(١) ص ٥٢٦ / ٥٢٧ .

يكلون إليه أموراً أخرى تتعلق بالسياسة كما في مكاتباته عنهم رؤوساء الدولة السعودية ، فلعل مقامه هذا ، وخشية من أن يحدث ما لا يَرْضَى ، لم يترجم الشيخ في هذا الكتاب .

وإن كنت أرى مقام الشوكاني أرفع قدراً وأعلى منزلة في العلم الذي يُقدّم خدمته ونشره على كل ما عداه من الاعتبارات الأخرى .

ويأتي القول في القصيدة التي نشرها الشيخ حامد الفقي في مجلة "الإصلاح" التي كان يصدرها في مكة في الجزء الذي صدر في شهر المحرم سنة ١٣٤٩هـ في رثاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - والتي سبقت الإشارة إليها ، ولم يوردها محقق الديوان ، وإنما اكتفى بنقل أبيات منها اعتماداً على نشر الشيخ حامد الفقي لها .

ومن المؤسف أن الشيخ حامداً لم يذكر لهذه القصيدة مصدراً ، ومعروف عنه أيضاً - رحمه الله - أنه كان يسعى بمختلف الوسائل للتزلف والتقرب لمناصري الدعوة السلفية من رؤساء وعلماء ، ولهذا فليس من المستبعد أن يكون نشره لهذه القصيدة من هذا القبيل .

وقد تحدثت بأخْرةٍ إلى الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب عن القصيدة ، وأنني سبق أن قرأت ما فهمت منه بأنها قيلت في رثاء أحد مناوئي دعوة الشيخ ، ووالد الدكتور - وهو من أصدقائي - الشيخ محمد بن حسن الضبيب ، من المثقفين الواسعي الاطلاع ، والعناية بكل ما يتعلق بتاريخ هذه البلاد وعلمائها ، فما كان من الدكتور أحمد حين أكرمني بالزيارة بأن قدّم لي صورة أوراق كتبها والده حول هذه القصيدة جاء في أولها: « لا يخفى أن هذه القصيدة

ذكرت في "الإصلاح"^(١) للإمام محمد بن علي الشوكاني يرثي بها شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والصحيح أنها مرثية في ابن فيروز رثاه بها أحد تلاميذه كما أخبرني بذلك شيخنا الشيخ عبدالله بن خلف الدحيّان الساكن في الكويت ، ونائب قضاتها اليوم ، وأشار إلى مجموعة نقل عنها ، وقال : «وهي الآن تحت تصرفه ، ثم قارن بين القصيدتين ، وذكر الاختلاف بينهما ، وما في مجلة "الإصلاح" من تغيير تحدث عنه بتوسع ، ونقل قصائد في رثاء الشيخ ابن فيروز ، وأنه توفي سنة ١٢١٦هـ ، ثم ذكر أن في هذه المراثي قصيدة نظمها الشيخ محمد بن أحمد بن عبدالرحمن بن عبداللطيف الشافعي ، وذكر مطلعها :

مصائبُ دهي قلبي فأذكي غلاتلي

وأصمى بسهم الاجتماع مقاتلي

وأورد أبياتاً أخرى منها ، وآخرها :

وخاطبه التاريخ فالأ بقوله

تبوأَت عن عدن

انتهى ما لخصته مما كتبه الشيخ محمد الحسن الضبيب ومنه يتضح أن ما نشر في مجلة "الإصلاح" أقل ما يوصف به أنه لا يطابق الحقيقة . ثم بعد كتابة ما تقدم اطلعت في مجلة "الدرعية"^(٢) في ترجمة الخطاط عبدالله بن إبراهيم الربيعي : «أن من ضمن ما نسخ قصيدة في رثاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب للشوكاني محمد بن عبدالله ١٢٥٠هـ ، والنسخ ١٣٣٦هـ» انتهى ، وهذا يدل على أن نسبة القصيدة متقدم على زمن نشر الشيخ حامد

(١) الجزء السادس عشر من المجلد الثاني تاريخ ١٥ المحرم ١٣٤٩هـ .

(٢) العددان السادس والسابع - ربيع الآخر - رجب ١٤٢٠هـ ص ١٧٧ .

الفقي لها في مجلة "الإصلاح" الذي نقل عنه أحمد عبدالغفور عطار ومن بعده ، وهذا يدل على أن القصيدة منسوبة للشوكاني قبل الشيخ حامد الفقي .

ومع كل ما تقدم فالإمام الشوكاني - رحمه الله - كما يتضح من نصوص كلامه ، ومن موقفه حيال هدم القباب المشيدة على القبور في صنعاء ، وفي كثير من الأمكنة المجاورة لها ، وفي جهات (ذمار) على ما ذكر هذا في ترجمة الإمام سعود بن عبدالعزيز ، كان من المناصرين للدعوة السلفية ، ولم يداخله أي شك في صحتها ، ولا يتطرق الوهم إلى من له اطلاع واسع على مؤلفات الإمام الشوكاني في مجملها ، أنه - رحمه الله - من أشد المناصرين لتطهير العقيدة السلفية مما ألصق بها من بدع وخرافات ، ومن الأئمة الداعين إلى الاجتهاد ، وعدم العكوف على الموروث من آراء المشايخ ، وأهل البدع والتخريف ، وهو أرفع مقاماً من أن يؤثر في موقفه هذا بعض الجهلة الذين لا يفتأون يسعون لإيجاد الفرقة بين المسلمين ، وفي محاولة تشويه الداعين إلى مناصرة الحق ، والنيل من القائمين بنشره ، ومن هؤلاء ناشر هذا الكتاب الذي دعاه "ذكريات الشوكاني" .

والمؤلم حقاً أن يقوم على نشره أناس ينتمون إلى هذا القطر الكريم ، من البلاد العربية الإسلامية الذي يربطه بإخوانه وجيرانه من مناصري الدعوة الإصلاحية ، والقائمين بنشرها روابط قوية من القربى ، والأخوة الإسلامية ، والتواصل والتراحم ، والتساعد على البر والتقوى ، ولكن أهل الشر لا يلبثون في كل مناسبة أن يحاولوا طمس الحقائق ولكن الله سبحانه وتعالى يحق الحق ويبطل الباطل .

(للحديث تنمة)

الإمام محمد بن علي الشوكاني وموقفه من الدعوة السلفية الإصلاحية

[٣]

الشيخ حمد الجاسر *

ويحسن أن نستعرض بإيجاز ما في هذا الكتاب من رسائل منسوبة إلى بعض أئمة أهل نجد ، فمن ذلك رسالة جاء في مقدمتها ^(١) : وصل في شهر شوال سنة ١٢١٦ هـ ، إلى حضرة مولانا الإمام المنصور بالله حفظه الله كتاب من سلطان نجد عبدالعزيز بن سعود وهذا لفظه : السلام التام والتحية والإكرام يُهْدَى إلى سيد الأئام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ثم ينتهي إلى جناب الإمام بن الإمام الشريف علي أسعده الله بطاعته وسلمه من الآفات ، وحفظه من طوارق البليات ، واستعمله بالباقيات الصالحات ، ويعد : الخط الذي مع محمد بن محمسة وصل وصلك الله إلى رضوانه ، وما فيه من مواصلة الدعوة والدرس والذي غيره كذلك وصل ، وهذا اصلك بيد ابن محمسة إن شاء الله هدية وهي أجل الهدايا عندنا ، فالمأمول فيك قبولها ، وقبولها جزاؤها ، وهي مجموع فيه « تفسير الشهادتين » وفيه « توحيد الله بالعبادة وما عليه من الأدلة » ، وفيه « كشف الشبهات » التي يوردها أعداء الإسلام على أهل التوحيد ، وفيه « تفسير فاتحة الكتاب » وفيه « ستة

(١) "رسائل الشوكاني" ، ص ١٣٣ .

* علامة الجزيرة العربية المحقق المدقق . درس في بلدته البرود ثم في الرياض ومكة المكرمة والقاهرة ، وعمل في مجال التعليم والصحافة والتأليف والنشر وعضوية المجامع اللغوية ، وأصدر صحيفة اليمامة ثم مجلة العرب ، وله مئات الآثار في التأليف والتحقيق والمقالة ، وحصل على العديد من الجوائز ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

مواضيع منقولة من السيرة» فالمأمول فيك قمع النظر ، وتجمع له علماء أهل السنة ، وتوثقهم حتى يعطوك العلم على حِلِّه ، وفي الحديث عن الصادق المصدوق صلاة الله وسلامه عليه قال : «الدين النصيحة» قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : «لله وكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وأنا أحلف لك ما حملني على هذا إلا هذا ، ومقتضى هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ^(٢) وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ أعطى الراية يوم (خَيْبر) على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم عما يجب عليهم فيه من حق الله تعالى فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النعم» وفي الحديث الصحيح أيضاً عن معاذ رضي الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قال : «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» .. إلى آخر الحديث .. ثم قال : (أنهى إلينا مع ابن محمسة من عالم من علماء صنعاء أسئلة كثيرة وغالبها ما يصير سؤال مسترشد ، وكل مسألة جاوبناه عنها بما يكفي ويشفي من الأدلة التي لا تنكر، وتراني لَزَمْتُ على ابن محمسة ما يعرض كتاب الأجوبة إلا عليك ، ويصلك مع السلامة إن شاء الله مع ابن محمسة ، - وقدرك عندنا أجلٌ - ثلاثة حُصْنٍ ، أزرق وأصفر وأحمر ، ويكون عندك معلوم أنهم من أنسب ما وجد عندنا على عجلة الطارش ، فأنت أعذرٌ وسامح ، والمأمول فيك ترد لنا جواب ما ذكرنا لك في الورقة ، وما أقر به علماء صنعاء

(١) يوسف ، الآية : ١٠٨ .

(٢) فصلت ، الآية : ٣٢ .

وما أنكروا ، وسعود وإخوانه وأبناء الشيخ كثير والسؤال عنك والدعاء لك ، ثم أنت في حفظ الله وأمانه) .

وقال في آخر هذه الرسالة : (والعمائم لا تغرُّك ، لا تقلدهم دينك ، قلد دينك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع السلف الصالح ، ترى كثيراً منهم مثل ما قال الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) فلا يوهموك) . إلى آخر الرسالة التي توقيعها : (الواثق بالله عبدالعزيز بن سعود) ثم ذكر جوابها ، ويظهر أنه من إملاء الشيخ الشوكاني .

ثم أورد رسالة من سعود بن عبدالعزيز إلى أحمد بن الإمام المنصور ، وهي في الدعوة إلى العقيدة السلفية جاء في مقدمتها^(٢) : (وما ذكرت من قبولك الدعوة ، واستجابتك لما دعوت إليه من الحق ، فهذا هو اللائق بجنابك والظن بك ، ونسأل الله لنا ولك الهداية والتوفيق والإرشاد إلى سبيل النجاة ، فإن الاستجابة لله ولرسوله كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وما دعوناك إليه فهو كما قال تعالى عن شعيب ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾^(٤) ولا دعونا الناس إلى هذا الأمر إلا بعد ما بين الله لنا الحجة وأوضح لنا المحجة وسلكنا الطريق قبل أن ندعو الناس إليه كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

(١) التوبة ، الآية : ٣٤ .

(٢) ص ١٢٣ :

(٣) الأنفال ، الآية : ٢٤ .

(٤) هود ، الآية : ٨٨ .

وموضوع الرسالة شامل ، وفي آخرها : (الواصل إليك ثلاثة بشوت ^(١) قَزَ ، وثلاث قربات أمهات علامتين ^(٢) ، وشبريتين من شباري أهل نجد) ^(٣) .

ثم رسالة من عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز إلى أحمد بن المنصور في الدعوة للعمل على نشر الدعوة الإصلاحية في بلاد اليمن ، وفي آخرها ^(٤) : (والواصل إليه إن شاء الله بيد حفيظه عباءتين جوخ وسيف وثلاثة بُشُوت قَزَ ، والمأمول فيك قبولهن) .

ثم جوابها من أحمد بن المنصور يعلق على بعض ما ورد في رسالة الإمام عبدالله بن سعود .. ثم رسالة من المنصور على بن المهدي ردّاً على رسالة الإمام سعود بن عبدالعزيز جاء فيها ^(٥) : (وبعد فقد وفد علينا كتاب محبنا سعود بن عبدالعزيز ، لا برح في حرز الله الحريز ، فسرّنا ما اشتمل عليه من عافية وصلاح شأنه ، وحمدنا الله على إيجاد مثله هو ووالده في تلك الأقطار التي كان قد غلب على أكثرها حكم الجاهلية الأولى ، فنشر بها أعلام الإسلام ، وأقام بها الشرائع والأحكام) .

وفي الكتاب رسائل متبادلة بين الشريف حمود شريف (أبي عَرِيش) وبين عامل الجهات اليمنية ، ومن الإمام المنصور علي بن المهدي إلى الشريف حمود ، ورسائل أخرى بين الشريف غالب وبين المتوكل ، عن وصول محمد علي باشا إلى (جدة) ثم رسالة من المتوكل لمحمد علي باشا عن انضمام الشريف حمود إلى قبول الدعوة الإصلاحية جاء فيها ^(٦) : (فلما كان تمام ست عشرة قبل اليوم بثلاث عشرة سنة وقعت من حمود الموالاة

(١) البشوت كلمة عامية جمع بُشْتُ وهو العباءة ، والقز نوع من الحرير ، وكان هذا النوع من العباءات ينسج من القيلان وهو نوع معروف .

(٢) جمع قرآب ، ولعله نوع من الخناجر الطويلة المعروفة في ذلك الوقت .

(٣) الشَّبْرِيَّة واحدة الشباري نوع من الخناجر بطول الشبر .

(٤) ص ١٢٩ .

(٥) ص ١٣٣ .

(٦) ص ١٥٤ - ١٥٥ .

لعرب المشرق من أهل نجد وغيرهم ، وكانت الولاية في تلك الأيام لوالدنا الإمام المنصور رحمه الله وكان مريضاً في بدنه ، فلم ينصح له وزراؤه ، وخذعوا في الخدمة ، فاغتنم الفرصة الشريف حمود ، واستعان بطوائف العرب ، ووافقهم فيما يدعون الناس إليه ، وعاهداهم وعاقدهم ، وجلبهم إلى هذه الديار اليمنية ، فأخذوا أطراف البلاد بغياً وظلماً وعدواناً ، وكافأ حمود ما تقدم منا من الإحسان إليه بهذه الإساءات) ويستنصر بالبasha على حمود .

ورسالة من الشوكاني لدعوة الشريف حمود إلى الصلح مع الإمام المتوكل ، وجواب من حمود يُبدي استعداداه للصلح .

ورسالة من الإمام سعود إلى المتوكل عن انتصاره على أعداء الإسلام ودعوته لقبول الحق والانقياد له .

ثم رسالة منسوبة للشوكاني بعنوان (شكوى الإمام المتوكل من غزو الوهابيين لأراضيه) كما يشكو من التعرض لحجاج بيت الله الحرام جاء فيها ^(١) : (غير خاف عليك أرشدنا الله وإياك أنه قد توثَّب على أطراف البلاد التي إلينا ، جماعة لا ندري أكان ذلك عن أمرك أم من جهة أنفسهم ، فبهذا السبب حصل الاضطراب في تلك الأطراف ، فليكن من جنابك رفع هاؤلاء المتوثبين ، وكف أيديهم ، حتى يتم لنا ولك نشر الحق ، ونجتمع على كتاب الله وسنة رسوله ، ونلزم بذلك جميع الرعايا في جميع هذه الأقطار ، فإن تمام هذا المقصد لا يكون إلّا بعد سكون الرعايا ، واستقرارهم عن الاضطراب ، وإذا قد علموا اجتماعنا نحن وأنتم على هذا المقصد الصالح ، وعرفوا اتّحاد الكلمة في دين الله أطاعوا وامتثلوا بذا ، طرف آخر : وهو ما وقع هذا العام ، والعام الذي قبله من صدَّ مَنْ أُمُّ البيت الحرام من أهل هذه البقاع ، وهم وفد الله وحجاج بيته ، ونحن لا نشك أن مثل هذا لا

يَصْدُرُ عن أمرك ولا ترضاه ، فإن فيه من المخالفة للدين ، وسوء القالة بين المسلمين ما لا يخفى عليك) ولعل الرسالة موجهة إلى الإمام سعود .

وأكتفي باستعراض ما تقدم مما ورد في هذا الكتاب من الرسائل التي لا أطمئن إلى صحة نصوصها الواردة ما لم يتم الاطلاع على أصلها ، وهذا من الميسور لكثير من المحافل العلمية المعنية بنشر التراث كـ (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) ومراكز البحث والتحقيق في الجامعات ، ومن المهتمين بدراسة تاريخ البلاد بصفة عامة - السعي للحصول على نسخة مصورة لهذه المذكرات ، وأصلها في (مؤسسة الإمبروزيانا) في (إيطاليا) تحت رقم (E 87) وهي مصورة على الشريط (الميكروفيلم) بمكتبة عبدالله باديب - رحمه الله - في (عدن) ، ولها نسخة أخرى في (دار الكتب المصرية) في المخطوطات اليمنية التي صورتها البعثة المصرية إلى اليمن عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) وقد تكون مصورة في (معهد المخطوطات) التابع لـ (الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية) في القاهرة . وأن تتجه الجهات المعنية بشؤون البحث والدراسة في جامعاتنا وغيرها لتولي هذه المجموعة ما يهيئ الاستفادة منها ، وذلك بنشرها محققة ، فهي تمد تاريخ هذه البلاد بروافد علمية عن بعض الحوادث التي وقعت مما لا تزال مصادره غامضة .

يضاف إلى هذا أن عبث هذا العايب الذي وصف نفسه بالعلم والمعرفة ، بالنسبة لما نشر منها قد أحدث في بعض أفكار الذين لا يعرفون الإمام الشوكاني شيئاً من التشويش عن معتقده الصحيح ، ونصرته للكتاب والسنة ، فأبرز ما نشر من رسائله بصورة مشوهة تزري بمقام ذلك العالم الجليل ، الذي يجب أن يسان عن عبث العابثين من أمثاله ، وذلك بنشر آثاره نشرأً علمياً محققاً ، كما فعل حيالها الأستاذ الدكتور حسين بن عبدالله العمري ، فيما نشر منها ومن غيرها من المؤلفات النافعة .